قراءة في كتاب العودة إلى الأهوار لكيفين يونغ

ريا هاني فحص
كاتبة لبنانية

قد يزور رحالة ما بلدا ويقع في حب امرأة ما بالرغم من اختلاف ثقافيتهما، وقد حصل ذلك في تجارب عديدة عبر التاريخ حتى لم يعد غريباً، لكن الغريب هو ان يقع في حب شعب بأكمله وهو ما حصل مع الرحالة الانكليزي كيفين يونغ الذي ذاب في حب أهل الاهوار، فجاء كتابه عنهم قصيدة عشق. لقد سحره عالم الاهوار ناساً وطبيعة، وسحرني كتابه فوقعت انا ايضا في حب اهل الاهوار بعد قراءتي ذلك الكتاب الصادر عن (دار المدى).

لماذا لم نكتب نحن عن حياتنا بهذا الدفء والاستقصاء؟ أيكون الغريب اكثر منا تأثراً وتأثيرا؟ هل تناول كُتابنا وادباؤنا مثل هذه الموضوعات والشرائح البشرية في وطننا؟ بهذه الاسئلة التي تدمي القلب تبدأ رسالة الفنان العراقي محمد سعيد الصكار التي ارسلها الى صديقه الدكتور حسن الجنابي في منفاه هي استراليا عام ١٩٩٧ بعدما اطلع على بعض الفصول المترجمة من كتاب "العودة الى الاهوار".

في الاسئلة نفسها التي واجهتني عند اول قراءة لي للكتاب كتب الدكتور الجنابي في كلمة المترجم ولكنه يعزي نفسه بتقديمه تلك الترجمة علها تغطي جزءا ولو بسيطا في الفراغ الهائل لهذا النوع من الكتب.

اما يونغ فقد قرر التخلي عن عمله محاسبا في شركة بريطانية في الشحن البحري في البصرة حين زار الاهوار وتعرف الى اهلها. لقد أدرك يونغ منذ وقعت عيناه على اطراف القصب ان سحر المكان قد تسلل الى روحه.

كانت زيارته بداية لانقلاب عن وعي كامل على القوالب الجامدة والحدود المصطنعة بين الثقافات، فتمرد على الرتابة الوظيفية ليسير في "مشحوف" فوق الممرات المائية بين نباتات الاسل بدل السيارة على الطرقات. سكن بيوت القصب بين احفاد السومريين القدماء الذين لم تكن تحيط بهم لا الآلات ولا الابنية بل جواميس الماء وطيور البط.

اذا كان موقع جنة عدن على الارض فسيكون لا محالة بين دجلة والفرات، بين هذين النهرين يقع ايضا العالم الجميل لعرب الاهوار في العراق.

كتب يونغ: كان لديه عينان ذكيتان وبصيرة نابهة، برأي الجنابي قادرة على التقاط المشهد بأكمل تفاصيله راصداً حركة ابطاله، فاستطاع تحويل البسطاء والاميين من "المعدان" سكان الاهوار ممن يتندر عليهم ابناء المدن الى شخصيات محببة نثق بحكمتهم ومعرفتهم المتراكمة وكرمهم وشجاعتهم وفرادتهم.

لم يكن يونغ مؤرخاً او انتروبولوجياً او متخصصا بعلم الطيور او الحيوان او اي علم آخر، لكننا نجد في كتابه فصولاً في التاريخ يتجاوز معارك البريطانيين والاتراك وظهور الاسلام وغزوات اليونانيين والفرس والآشوريين الى الازمنة السومرية العريقة بل الى بداية الخليقة. لذلك ترك د.الجنابي ليونغ الكتابة عن "المنجز الحضاري العراقي والاضافات المشرقة التي قدمها العراقيون عبر التاريخ للتراث الانساني وعن منطقة الاهوار التي حرص النظام العراقي السابق عبر سنين عديدة على تدميرها لاستكمال جولة السقوط في الوحشية والقضاء على قدسية الحياة والتاريخ، حياة الناس خاصة ناس الاهوار وتاريخهم.

يتساءل يونغ في نهاية الكتاب: هل انقرض عرب الاهوار؟ هل دُفنت آلاف السنين من تلك الحياة في مسلخة القرن العشرين (حرب ايران-العراق) هل حقاً جُفقت مساحات شاسعة؟ هذا يعني ان اعداداً كبيرة من القرى قد أزيلت من الوجود والله يعلم مصير سكانها. ان قلبي يخفق خوفاً حين افكر بذلك. انني اصلي من اجلهم الآن وان حدث مكروه وتبددوا فأنا أصلي لأطفال اطفالهم ان يحفظهم الله لقرون قادمة.

أما نحن العرب، النخبة المثقفة خاصة، هل خفق قلب احدنا يوماً لما حصل في الاهوار بل هل كان لدى تلك النخبة بعض الفضول والشجاعة لزيارة تلك المنطقة وأهلها؟

جاء في أبيات لشاعر عراقي:

في دم إمرأة من أهل الهور
غمست يدي
وسأرسم سيدة
قاقترحوا أنتم ومضة عينيها
سأقترحها، ستكون ومضة
عطشى لماء الهور ولانها
امرأة من اهل الهور تحديداً
سيكون دمها ماء.

أناقة القنفذ

جمال المرء في سرائره وليس في مظاهره

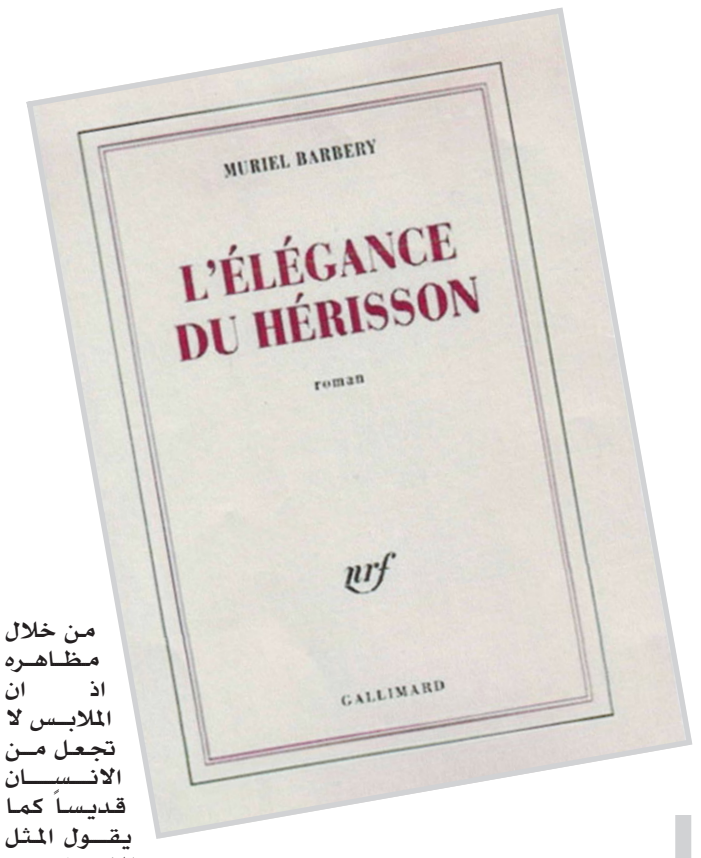

د.مهدي صالح

هذه الرواية ذات العنوان اللافت للنظر (اناقة القنفذ) ما هي الا نظرة فلسفية للحياة علما ان الروائية موريل باربري (٣٩) عاما تعمل استاذة للفلسفة في فرنسا، وتعتبر الرواية نقدا لاذعا للمجتمع البرجوازي وكتبت بأسلوب سلس وعميق في آن واحد تحت عنوان يثير الدهشة والاستغراب اذ ليس هنالك اية صلة بين الاناقة وبين حيوان قبيح ومثير للاشمئزاز مثل القنفذ. لكن هذا العنوان المعبر يدل على ان المظاهر غالبا ما تكون خادعة ولا يمكن ان نطلق حكماً على الانسان من خلال مظاهره اذ ان الملابس لا تجعل من الانسان قديساً كما يقول المثل الفرنسي ويتستر الفرد على غباءه خلف مظهر انيق يثير إعجاب من هم اكثر غباء منه.

وعند قراءتنا هذه الرواية نتعرف على رينيه (٥٤) عاما وتعمل بوابة في العمارة رقم ٧ في شارع غرينيل في باريس، وهي ارملة وقصيرة القامة وقبيحة الشكل وفقيرة وكتومة وتفوح من فما رائحة كريهة لا تطاق فهي القنفذ بحد ذاته، كما انها لا تعتني بملابسها ولا بشعرها، لكن هذا المظهر الخارجي يخفي ذكاء خارقا فهي مثقفة جدا وشديدة الولع بالكاتب الروسي تولستوي وتحب الفن كما انها عصامية ولا تطفئ التلفاز الموجود في غرفتها أبداً وتعشق الموسيقى الكلاسيكية وافلام المخرج الياباني ياسوجيرو اوزي (١٩٠٣-١٩٦٣) وتمتلك رينيه نظرة ثاقبة وتقوم بتحليل شخصيات سكان العمارة الذين ينتمون الى تيارين سياسيين مختلفين هما التيار اليمين المحافظ واليسار التقدمي، وكلهم لا يعيرون اية اهمية لرينيه وينظرون اليها وكأنها آلة تقوم بحفظ مفاتيح الشقق ورمي اكياس القمامة، اما بالنسبة اليها فهم يمثلون المجتمع البرجوازي الأبله صاحب العقلية الضيقة لكنهم يتصورون انفسهم نخبة المجتمع الفرنسي ويجهلون بأنها اثقف واذكى منهم جميعا ومن دون استثناء فهي تقرأ كثيرا ولديها احساس مرهف وتفهم في الموسيقى والسينما والرسم وهم لا يدركون أن الفن هو الحياة بحد ذاتها وتعتبر رينيه موسوعة فلسفية ولها القدرة على التعامل وبذكاء مع مختلف الناس وفي مختلفة الظروف، فبإمكانها ان تتناقش في نظرية الفينومنولوجي (الظاهرية) التي جاء بها الفيلسوف الالماني ادموند هوسيرل (١٨٥٩-١٩٣٨) وهي لا تتكلم اطلاقا عن آخر الازياء واحدث قصات الشعر بل غالبا ما تتحدث عن الفيلسوف الالماني (كنط) ١٧٢٤-١٨٠٤) الذي كان متحمسا للثورة الفرنسية واعتبرها انتصاراً للعقل علما بأنه هو الذي جعل العقل محوراً انسانياً مهماً.

اما الشخصية المهمة الثانية في الرواية فهي فتاة تدعى باموﻻ (١٢) عاما وهي ابنة دبلوماسي يدعي بانه يساري لكن كل مواصفات البرجوازي تنطبق عليه. وتتمتع هذه الصبية بذكاء خارق وتفكر بالانتحار في عيد ميلادها الثالث عشر وحرق الشقة التي تسكنها مع عائلتها لان الانسان الذكي لا يمكن ان يعيش في مجتمع يسيطر عليه الاغبياء، كما انها ترتبط بعلاقة قوية مع رينيه لان القاسم المشترك بينهما هو الذكاء والطيور على اشكالها تقع، علما بأنها من عائلة غنية لكن المال لا يستطيع منحها السعادة التي تنشدها او تغيير الافكار التي تؤمن بها.

يعتبر هذا الكتاب تحليلاً فلسفياً لمعنى الحياة ونقداً لاذعاً لمجتمع المظاهر.. وقد كتبت موريل باربري هذه الرواية الممتعة لكل من يعشق الكلمة الصادقة، والفن والحياة ويعلم علم اليقين ان ليس كل ما يلمع ذهباً.

في صحراء نيسابور

حميد المختار يكشف عن أقماره الخمسة

محمد مزيد

تصور رواية حميد المختار " صحراء نيسابور " الصادرة عن دار الشؤون الثقافية عالماً فسيحاً من الطهر والنقاء الروحي مواكباً فيها تجربته الكتابية التي ابتدأ بها منذ ثلاثة عقود عندما صدرت له اولى قصصه القصيرة في مجموعة " اصوات عالية " والتي ميزته عن الآخرين بفرادة المواضيع وغرابة الافكار وتنوع الاسلوب . في هذه الرواية ينحاز المختار الى التأمل في الفكر وعوالم الروح محاولاً إلقاء الاسئلة الشائكة في الحياة الدنيا والآخرة .

تتحدث الرواية عن صحفي يكلف من قبل رئيس التحرير بكتابة تحقيق عن مراقد الاولياء ، بالرغم من أنه " المنسي المركون في احدى زوايا هذه الجريدة الكبيرة " ص..٦ وبطلنا الصحفي ليس من أنصاف المواهب ممن تجدهم في بعض الصحف اكثر جعجعة وخواء بينما الموهوبون امثال بطل حميد المختار منزوون بعيدون عن الاضواء ، فيخاطبه رئيس التحرير " اعرف مقدرتك الكتابية ، فقد قرأت لك مقالات قديمة في صحف مختلفة ص٧ ".. وسبب اختيار ادارة التحرير لبطلنا كتابة التحقيق يعود الى مضمون التحقيق نفسه حيث طلب منه الكتابة عن قبور الاولياء والمتصوفة كمعروف الكرخي وبشر الحافي والسري السقطي والحارث المحاسبي والجنيد البغدادي وبهلول المجنون والشبلي والحلاج ومحمد بن علي الجبلي، ويقع اختيار البطل على الاسم الاخير " كان الاسم الاخير في القائمة ولا ادري لم ذكرني هذا الاسم بطفولتي البعيدة ، وفي الايام التالية اخذ اسم الشيخ الجبلي يلح علي كثيراً ص٩ " .

ثم يدخلنا الروائي في رحلة بحث شاقة عن مكان مرقد الجبلي ، وهو بحث لاتعوزه المهارة في الحوار والوصف ثم يصل في بحثه الى حارة ضيقة فيها بيوت متداعية ويلتقي الصحفي نجاراً كان مشغولاً بصناعة الكراسي ثم يأخذه الى بيوت طينية واطئة وابوابها مفتوحة وباحاتها مليئة بأطفال عراة وثمة نساء ضامرات الاجساد عاريات الصدور يرضعن اطفالاً صفر الوجوه يحتضرون في احضانهن العرقة ، ثم يدخل احد البيوت فيستقبله صبي يقول له ان الحاجة لن تسمح لاحد بزيارة الشيخ، وبعد ان تصل الحاجة التي " كشفت عن صدرها الابيض المرمري البارز من بين طرفي العباءة .. امراة في الاربعين ومازال جسدها مصراً على تشبثه بأذايال الشباب المنصرم ص١٥ " .. ثم تمتنع الحاجة عن إدخال الصحفي والمصور الى مرقد الشيخ الجبلي معللة حاجة المرقد الى ترميم ، غير ان الصبي يخبره باختصار الزيارة خصوصاً هذه الليلة فقد عزمت الحاجة على دخول الحضرة، ويقرر البطل في الوقت نفسه الاختباء داخل البناء ليرى ما سوف تفعله الحاجة عند دخولها المرقد " ثم رأى الصحفي الحاجة وهي تخلع ملابسها قطعة قطعة حتى بانت له ملابسها الداخلية ثم نضت عنها آخر ما تبقى وألقتها بعيداً كاشفة بذلك عن عري فاضح ثم تتحول المرأة الى كائن أبكم تجسم عبر مرآة شفافة معكوساً ومحتجبا بها ويرى انها اصبحت افعى بيضاء تلمع تحت وهج الرغبة وذبالة الشموع.

وبعدها يلتقي الصحفي بشيخ مهيب الطلعة يحدثه عن الإمام العابد الزاهد.

وبذلك ينتهي الفصل الاول ولعل تأويل حكاية الشيخ المتعبد تحيلنا الى قصة الإمام موسى بن جعفر ع في سجن السندي الذي دفع اليه الحراس بجارية عارية تهدف الى اغوائه ليرى الحراس بعد حين انها انقلبت الى متعبدة ناسكة تصوم وتصلي خلف الامام العابد (ع)!

تتناول الفصول اللاحقة المخطوطة المدونة التي افتتحت بدعاء الامام زين العابدين (ع) ولجوء المختار الى الحادثة التاريخية من دون الدخول اليها بعمق اذ بث الروائي شذرات من القول كانت حسب اعتقادي كافية للبوح فيما لا يمكن قوله ، والشجرة الملعونة التي وردت في الرواية تشير الى تلك الشجرة التي جاءت في القرآن الكريم وتعني الملوك الذين توارثوا الخلافة فجعلوها مطية للدنيا.

في فصل آخر سنجد فيضاً من عوالم الغيب والوجد حين ينهي بطلنا قراءة الصحيفة ولعلها الصحيفة السجادية الشهيرة ، ونرى أقماراً خمسة لعلهم اصحاب الكساء ثم تضاء الظلمة من بعد هؤلاء الخمسة.

ويصور لنا المختار بطله في مرحلة دخوله العرفانيات " منذ ذلك اليوم عرفت ما لم يعرفه الناس وانكشف سر الاسرار امامي ص٥٤ ثم يذهب الى خان الصعاليك حيث نجد انفسنا معاً ندخل الى خان الشحاذين وما هم بشحاذين فيطعم وينام ويسألهم عن الجبلي ويساله شيخ ماذا يريد منه فيقول له " اريد ما اراده موسى من الخضر ص٨٢ " فيطلب منه الابتعاد عن مسامرة الخلق ويحذره من الاضواء الكاشفة والظهور الكثير وحفظ قلبك في خلواتك وصلواتك و لاتلتفت الى غيره او سواه ، كن عاشقاً للكمالات واهل المعنى وابتعد عن ولائم الكذب والصخب والرياء ص٨٤ " وينتهي الوصل بالبحث عن اسرار اخرى " عندئذ اغلقت المدينة ابوابها ووجدتني في حال جديد ص٨٨ " .

في فصل مشكاة النار لخص حميد المختار تجربته المريرة التي عاشها في السجن ببلاغة وقول قد يرقى الى مستوى التجويد النثري مانحاً طاقة الشعر وانجازاته في الاختزال والتجريد والترميز الى وحدات سردية " الان كففت عن النظر الى الاشياء فما عاد الظاهر يشغلني او يرهقني سوى انني كنت انظر بعيون مغلقة وانام اذا ما نامت الاشجار وقوفاً ص٩٠ " ويرى البطل الذي تحللت روحه في المكان بحثا عن ضالته او حانته بممارسة " الصحو بعد الاغفاءة الطويلة التي قضيت فيها وطراً كبيراً من عمري ص٩١" وانه حين اسرع في الذهاب الى بساتين العقيق وطنافس اللذة واردية النعمة رمى قمره الخامس (الحسين الشهيد (ع)) بنظرة منكسرة وخنقته العبرة فصرخ " يارب اجعل قلبي حزيناً بحب قمري المقتول وضاعف في صدري محبته فلا يكون فيه الا محبة اقماري وليخرج دمي من محاجر عيوني ص١٠٣" .

في فصل " حانة الابدية " تذهب بنا الرواية الى الطريقة التي سيصل بها الراوي الى الحانة الابدية وهي حانة التعب والمشاق والمجاهدة بعد ان هزم وانهار من لم يستطع تكملة الطريق ، هنا يضع المختار بطله بين خيارين: خيار الدنيا بما فيها من العمل بالجريدة وغدر الاحبة والصداقات الكاذبة وبين خيار ثان بزيارة الشيخ الجبلي التي اصبحت الحد الفاصل لاحلامه وخيارته وخيالاته .. فترك الاولى متسائلا " اين كنت قبل حياتي هذه " وحين يتجه الى الحانة يرى الشيخ الجبلي ومدوني الصحيفة واقماره الخمسة وجميع اصدقائه المساجين بمعية صاحبه احمد .. وتنتهي الرواية بان ظل الجرس يرن رنيناً متواصلاً.

❖❖❖

بعد هذا العرض الموجز لفصول رواية " صحراء نيسابور " يمكنا القول ان وحدات سردية متشابكة قد عملت على صياغة احداثها منها ان الرواية اعتمدت اولا على وحدة سردية حلمية بدلالة تكليف الصحفي كتابة تحقيق عن احد الاولياء ، وعنصر التكليف يظهر في الاخير مجرد حلم اذ تبدأ الرواية برنين هاتف في غرفة الصحفي .. وتنتهي بان رنين الجرس مازال متواصلاً

ويستمر الحلم في فرضية بحث الصحفي الفعلي عن المراقد فيعثر على مرقد الشيخ الجبلي الذي يفتح له كوى اخرى سيفيض الروائي بحثاً واستدلالاً بها .

من هذه الكوى ، الصحيفة السجادية التي ارى امكانية قراءة تثير الاعجاب يتفرد المختار في تضمينها روايته وهي قراءة اكاد اقول انها تلمست عوالم تلك الصحيفة التي تضمنت ادعية الامام علي بن الحسين (ع) وما تحتويه تلك الصحيفة من مباحث في النفس والاخلاق والتربية والدين والفلسفة وعلوم عقلية في المنطق والبلاغة والفلسفة .. ولعل مرور الرواية على الصحيفة برشقات قلمية قد يبدو لي معقولا في سبيل ان تستمر اجراءات البناء الروائي ولم تختل صروحها وهي تتقدم الى الامام.

وعندما يمر على الحاجّة صاحبة المرقد التي تكشف عريها في لحظات من التماهي بين المعقول واللامعقول وبين الواقع والخيال تدخلنا الرواية في كشوفات سردية اخرى مبنية على فرضية تلاشي الجسد الانثوي بالغائب الراقد تحت التراب المجسد في المرآة ، اي مرآة الحاجة ذاتها وليست اية مرآة ، ان هذه الوحدة السردية وحدها يمكن ان تكون عنصراً في غاية الابلاغ عن مقدرة حميد في صياغة الحدث وملمة خيوطه وتشابك اقانيمه السرية .

اما عندما يفيض مروره على اصحاب الكساء سنجد الرواية تثري بالتلميح المؤثر بحثا عقائدياً من دون ان تثقل كاهل الرواية متون هذا البحث .. ولم تفلت خيوط النسيج من بين يدي المختار حتى تصل بنا الى مصائر اقماره الخمسة .. وخصوصا القمر الخامس الذي يدعو فيه بطل الرواية ربه ان يجعل قلبه حزيناً بحب قمره المقتول ويضاعف في صدره محبته .

كأن الرواية تريد التلميح والتصريح المؤثر بعهد الوفاء للشهيد الحسين (ع) وهي منسوجه اليه في نثر يبلغ لدى حميد المختار درجات من الجمال والرفعة والرشاقة ما لم اقرأه لحميد من قبل .

ولعل هذه الرواية تضيف الى مكتبة الرواية العراقية قوة حضورها في إلقاء الاسئلة الشائكة والمعقدة وغير المألوفة .

حصاد المطابع

ضد التأويل ومقالات أخرى

صدرت عن "المنظمة العربية للترجمة " الترجمة العربية لكتاب " ضد التأويل ومقالات أخرى "للروائية والناقدة الامريكية سوزان سونتاج (١٩٣٣- ٢٠٠٤) ترجمة د.نهلة بيضون .صدر الكتاب للمرة الاولى عام ١٩٦٦، وكان له تأثير كبير على أجيال من القراء في العالم . وهو يضم العديد من المقالات الشهيرة للكاتبة . يقع الكتاب في ٤٠٠ من القطع المتوسط .

روح الأنوار

عن رابطة الناشرين المستقلين صدر حديثا كتاب " روح الانوار " للكاتب والمفكر تزفيتان تودوروف . قام بترجمته حافظ قويعة. ويمثل هذا الكتاب تواصلاً مع النهج الفكري للكاتب لصياغة تصورات جديدة ومختلفة في محاولة للدخول الى عالم الجنس البشري وتنويعات قيمه الكونية .

ريلكه في قصائده الفرنسية

عن دار المدى (دمشق، ٢٠٠٨) صدرت حديثاً الترجمة العربية للأعمال الشعرية الكاملة، المكتوبة بالفرنسية مباشرة، للشاعر الألماني راينر ماريا ريلكه (١٨٧٥ . ١٩٢٦). وتعد هذه الترجمة التي أنجزها الشاعر العراقي شاكر لعيبي هي الأولى من نوعها، والتي تحوي جميع قصائد الشاعر المكتوبة بالفرنسية، ذلك أن ترجمات سابقة ، اقتصرت على تعريب مختارات محددة من دون أن تتصدى، أي واحدة منها، للقصائد الفرنسية الكاملة لريلكه.

عاشقات

صدر عن الهيئة المصرية العامة للكتاب - سلسلة الجوائز-رواية " عاشقات " للروائية النمساوية الفريدة يلنيك ، التي قام بترجمتها الدكتور ماهر مصطفى ، والذي له الفضل الكبير بتعريف القارىء العربي بكلار الكتاب الالمان . والذي قال عن الرواية المترجمة انها " عمل من أعمال الثقافة الإنسانية الكبرى.